تعليق على البحث

بداية أنا لم أفصل في كثير من النقاط لأن المطلوب في البحث كان دراسة كتاب في الرد على الشبهات وإيضاح نقاط القوة والضعف فيه فيما لا يزيد عن عشرين صفحة بالخط المستخدم ، فلم يكن ممكنا ذكر ردود الدكتور بالتفصيل فذكرت رؤوس الموضوعات وكذلك في التعقيب التفصيل لم يكن ممكنا، وبالطبع كان تحديد نقاط القوة وعكسها معتمدا على ما تم دراسته في الدورة.

بالنسبة لنقطة (ما ذنب ما لم يصله القرآن) فهذه أنا اتفقت فيها مع الدكتور رحمه الله في القواعد التي رد بها وعلقت فقط على التفصيلات التي لم تعتمد على مصدر وبينتها ، وإلا فنقطة (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) التي ذكرها الدكتور فيها الكفاية ، فالمسلم لم يزعم أن من لم يصله القرآن سيحاسب على عدم الإيمان به كي يقال هذا! ، فالتساؤل منتهي قبل أن يبدأ ، وأما تطرق الدكتور رحمه الله لنقطة أثر النبوات في الأمم المعزولة مكانيا فكان في سياق إيضاح أنه ليست كل أمة بعيدة عن مواطن الرسالات المعروفة والمذكورة في القرآن الكريم لم يصلها وحي ، بل القرآن جزم بأن ما لم نعرفهم من الأنبياء كثيرون وكذلك السنة النبوية ، كما أن دراسة بعض العقائد حتى الوثنية يعكس أن بعضها كان له أصل سماوي وانحرف كما كان يحدث دائما.

أما عن نقطة تفاهة الإنسان أمام عظمة الله تستدعي عدم تعذيبه ، فهذه في الحقيقة تحتوي مغالطة استدلالية كشفها الدكتور وأتفق فيها معه كما ذكرت في البحث، فيسر خلق الإنسان على الله كسائر المخلوقات لا يعني أن الإنسان عند الله تعالى هين بل هو مخلوق مكرم نفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وفضله على سائر المخلوقات التي يراها بالعقل والإدراك وسخر له أكثر المخلوقات الأخرى وأرسل له الأنبياء وأنزلت لأجله الكتب وفتحت له أبواب التوبة مهما أسرف على نفسه وجعلت الحسنة بعشر أضعاف على الأقل والسيئة بمثلها وتغفر وغير ذلك ، وأمام كل هذا العطاء والتكريم يتوجب على الإنسان الشكر والإقرار أكثر من غيره ، ومن كمال وتكامل صفات الخالق العظيم تبارك وتعالى أنه بجانب الرحمة الواسعة يوجد العدل المطلق والحكمة العظيمة ، لا نفرق بين صفات الله ونؤمن ببعضها ونترك بعض ، فليس من العدل والحكمة أن يستوي الشاكر والجاحد ، والصالح والطالح ، والمصلح والمفسد ، تحت مبرر أن الإنسان خلقه هين أمام عظمة الله! فإذا كان هذا الهين لم يقر بهوانه أمام عظمة خالقه أصلا ورأى أنه أفضل منه أو لا يحتاج إليه أو نسب الألوهية لما هو دونه من الأحجار والمخلوقات هل يأتي بعد ذلك ويستدل بهوان خلقه على عدم تعذيبه! لو أقر به من البداية وعمل بمقتضاه لما كان من المعذبين.

أما عن مسألة العذاب غير المحدود من أجل ذنب محدود زمنيا وهو الكفر ، فاختلافي مع الدكتور في عرضها كان سببه الاجتزاء نوعا ما ، والبناء فقط على الآية القرآنية المحكمة التي تعكس أن صفة الجحود لازمة للشخص المعذب وإن عاش أبدا وليست مرتبطة بمدة بقائه ، نعم هذا صحيح فعمر الإنسان وابتلائه فيه بالنعمة والضرر وببيان الحق والتعرض للباطل ليختار ، هو كاشف عن صفاته الممتدة التي لن يحيد عنها ، ولذلك أورد القرآن الكريم مرارا نموذج من يتوبون عند الشعور بالخطر كعواصف البحر ، ثم يعودون لما كانوا عليه عند الأمن استدلالا على أن الجاحد المستحق للعذاب قد جحد على علم وإصرار وأعطي من الفرص ما تقوم به الحجة عليه لذلك طال عمره أو قصر سيظل على ما هو عليه فلا عجب أن عذابه خالد ، وقد جاء في السنة أن من يخلد هو فقط من ليس في قلبه مقدار حبة خردل من إيمان ، وهو مقدار ضئيل جدا ورغم ذلك جعل سببا في الخروج وعدم الخلود فيها، فأصبح الخالدون فيها قد بلغوا مرحلة من الجحود الروحي والقلبي غير مرتبطة بزمن، وعجائب هذا الاعتراض أنه دائما يتناول العذاب اللا محدود ولا يتناول النعيم اللا محدود للمؤمنين رغم أنهم عاشوا وقتا محدودا أيضا! ، ولو أن الأمر كذلك فلماذا لا يحتجون على ذلك بدعوى مخالفة العدل !

هذه النقطة التي اعتمد عليها الدكتور باختصار مبالغ فيه في سطور بسيطة وأنا فصلت فيها هنا من عندي ولكن في رأيي كان هناك نقطة أهم جديرة بالتناول وهي التي عارضت لأجلها اختصار الكاتب، وتلك النقطة هي أن العبرة أصلا في تقييم الأخطاء ليس عددية ولكن سببية، فلا يقول أحد مثلا أن المغتصب عندما يعدم أو يسجن لسنوات عديدة أن هذا ظلم لأن الاغتصاب استغرق دقائق فقط! وفي أي قانون وشريعة لا يستوي من أطلق رصاصة فأصاب قدم إنسان ومن أطلقها فقتل إنسان ومن أطلقها ففجر خزان وقود حرق مدينة كاملة، مع وجود وثبوت التعمد في كل الحالات ، فتقييم الخطأ والذنب حتى في حياتنا لا يتعلق بمدته ولا يتعلق بالعدد حسابيا، بل حتى في ديننا جعل الكفر الكامل هو الذنب الوحيد الذي لا يغفر لصاحبه ولا يخرج من النار بعدما تقام عليه الحجة وتبلغه الرسالة ، فالعبرة إذن بماهية الذنب وليس بالكم الزمني أو العددي ، وبتوافر ما يحجز صاحبه عنه ويذكره بتركه، لذلك جعل حتى العذاب داخل النار درجات بحسب ما أتى الإنسان من بيان ، ففي قصة أصحاب المائدة جعلت المعجزة الإضافية حجة زائدة عليهم تؤدي بهم إذا كفروا إلى عذاب أكبر من الكافر الذي لم ير المعجزة الزائدة (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)) سورة المائدة، فسبحان الله العدل حتى في عقابه للجاحدين له، إذن فالجمع بين إيضاح النقاط السابقة مهم وأولى ، فحجم ذنب الكفر والجحود ليس كغيره بعدما وفر الله للإنسان كل أسباب الإيمان من فطرة وعقل ومبادئ عقلية تناقض معتقدات الكفار المختلفة من الإلحاد إلى الشرك ومن رسالات جعل بلاغها شرطا للعقاب دون اعتماد على الفطرة والعقل فقط ، ومن فرص وابتلاءات جاءت للإفاقة والتذكير، وغير ذلك مما يعلمه الله من أسباب وتتباين فيه علوم خلقه ، فإنا نقر ونجزم أننا دوما لا يمكننا الإحاطة بواسع حكمته تبارك وتعالى في خلقه وتشريعه وثوابه وعقابه، بجانب أن العمر في حقيقته اختبار كاشف لحقيقة النفس الممتدة وليس الأمر عدة

سنوات نحاسب عليها كمن يعمل بالساعة في شركة من الشركات، بل وربما إذا حوسبنا بالساعة والدقيقة لما دخل حتى المؤمنون الجنة ،ولعل هذا الطرح من ثمرات الإغراق في المادية ونظرتها للحياة وإهمال الجوانب الأسمى في الإنسان.

وهذا كله من عظيم الحكمة والعدل الإلهي كما سبق ذكره ، فوضع الرحمة في غير موضعها بما يناقض العدل والحكمة ليست صفة كمال ، والله تبارك وتعالى له كل الكمال.

هذا اختصار وإن طال ، وبإذن الله من سيلتحق في البرنامج سيجد المزيد ، ومن أراد أن يستزيد خارجه فليستفد بكتاب (ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث) للدكتور سلطان العميري.